مَعَانِي السُّلْطَانِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

محسن وهيب عبد

العتبة الحسينية المقدسة - كربلاء المقدسة

فحوى البحث

بحث فلسفي يطرق أبواب فلسفة المعنى لكلمة وردت في القرآن الكريم، وبمواقفها الإعرابية المختلفة، ستاً وثلاثين مرة بالمعاني التي بدأ السيد الباحث بتفصيلها مفتَتَح البحث.

وقد جرى البحث ضمن ثمانية فقرات وبصورة مركزة بعيداً عن التشتت في الطرح وهي:

- المعنى اللغوي للسلطان.
- السلطان هو الهوية التكوينية لكل كائن موجود.
- معنى (السلطان التكويني).
- عندما يتحقق للنفس البشرية سلطانها القرآني النامي.
- بناء الحجم النامي لسلطان القرآن في النفس الانسانية.
- السلطان القرآني في النفس والتأويل.
- السلطان قوة وقدرة روحية مقنعه.

١. مقدمة في المعنى اللغوي للسلطان:

جاء في لسان العرب: ((كل سلطان في القرآن؛ حجة. وقولـه تعالى: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[سورة الحاقة: ٢٩]؛ معناه ذهب عني حجتي.

والسلطانُ؛ الحجة، ولذلك قيل للأُمراء سَلاطين لأَنهم الذين تقام بهم الحجة والحُقوق.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾[سورة ابراهيم: ٢٢]؛ أَي ما كان له عليهم من حجة.

كما قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[سورة الحجر: ٤٢]؛ قال الفراء وما كان لـه عليهم من سلطان؛ أَي ما كان له عليهم من حجة يُضِلُّهم بها إِلاَّ أَنَّا سَلَّطْناه عليهم لنعلم مَن يُؤمن بالآخرة.

والسُّلْطانُ؛ الوالي وهو فُعْلان يذكر ويؤنث والجمع السَّلاطِينُ والسُّلْطان.

والسُّلْطانُ؛ قُدْرةُ المِلك يذكر ويؤنث.

وقال ابن السكيت: السلطان؛ مؤنثة يقال قَضَتْ به عليه السُّلْطانُ، وقد آمَنَتْه السُّلْطان.

قال الأَزهـري: وربما ذُكِّر السلطان لأَن لفظه مذكـر قال الله تعالى بسُلْطان مُبين.

وقال الليث: السُّلْطانُ؛ قُدْرةُ المَلِك وقُدرةُ مَن جُعل ذلك له وإِن لم يكن مَلِكاً كقولك قد جعلت له سُلطاناً على أَخذ حقِّي من فلان. والنون في السلطان زائدة لأَن أَصل بنائه السليطُ.

وقال أَبـو بكر: في السلطان قولان أَحدهما أَن يكون سمي سلطاناً لتَسْلِيطِه والآخر أَن يكون سمي سلطاناً لأَنه حجة من حُجَج الله.

قال الفـراء: السلطان؛ عند العرب الحجة ويذكر ويؤنث فمن ذكر السلطان ذهب به إِلى معنى الرجل ومن أَنثه ذهب به إِلى معنى الحجة.

وقـال محمـد بـن يـزيـد: مـن ذكـر السلطان ذهب به إِلى معنى الواحد ومن أَنثه ذهب به إِلى معنى الجمع. قال؛ وهو جمع واحده سَلِيطٌ فسَلِيطٌ وسُلْطان مثل قَفِيزٍ وقُفْزانٍ وبَعِير وبُعران، قال ولم يقل هذا غيره والتسْلِيطُ إِطلاق السُّلْطانِ وقد سلَّطه الله وعليه.

وفي التنزيل العزيز ولو شاء اللهُ لسلَّطَهم عليكم، وسُلْطانُ الدَّم تبيُّغُه وسُلْطانُ كل شيء شِدَّتُه وحِدَّتُه وسَطْوَتُه قيل من اللسانِ السَّليطِ الحديدِ))[1].

فاذن اذا جيء بلفظ السلطان عند العرب مؤنثا فانه يعني الحجة واذا جيء به مذكرا فعني به الرجل، او اذا انثه ذهب به الى معنى الجمع وإذا ذكره ذهب به الى معنى المفرد...

وفي كل الاحوال قان السلطان يأتي بمعنى القدرة والقوة الحية الفاعلة المؤثرة. وقد نقل هذا اللفظ الى القران الكريم بمعنى قريب من ذلك.

٢. السلطان؛ هو الهوية التكوينية لكل كائن موجود:

ان لفظ السلطان وحيثما ورد في الآيات الكريمة من القران الكريم ارتبط بالله تعالى منه وعليه وله سبحانه وتعالى، وبالإنزال من عنده جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[سورة الحج: ٧١].

اي ما يعبدون وما يتعبدون به؛ انما هو بدعتهم الصفيقة، بل لا علاقة له بالخلاق العظيم جل شأنه، بمعنى ان لا هوية تكوينية له حتى، وهو لاشك جهل مطبق، وطّده بين الناس الظالمون الذين يستفيدون من تلك العقيدة الوثنية المزيفة الظالمة.

اما لماذا ارتبط (السلطان)؛ هذا اللفظ المبارك بالله تعالى؟.

وكيف ينزل السلطان من الله تعالى؟.

لأن السلطان وحيثما ورد في القران الكريم؛ يفيد الانتساب الى الله تعالى، اذ لا قوة إلا بالله العلي العظيم، فالسلطان؛ هو القوة الروحية من اصل قول الله تعالى للشيء كن.

فـ (كن): كلمة الخالق التي يستوي بها وجود كل كائن نزولا من عالم الخلق الى عالم الامر والتكوين.

فالكينونة تبدأ اولا بتقدير الله تعالى للأشياء وتصميمها (Design)، قبل وجودها الظاهر، وهو عالم الخلق السابق

(١) ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، (لسان العرب)، دار صادر –بيروت –الطبعة الأولى: (ج: ٧/ ص: ٣٢٠).

على الوجود، فاذا اراد الله تعالى لشيء من المخلوقات الاستواء والظهور، قال تعالى لذلك الشيء كن فيكون.. وهو واضح في أقواله تعالى:

- ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة البقرة: ١١٧].
- ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة ال عمران: ٤٧].
- ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة ال عمران: ٥٩].
- ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة النحل: ٤٠].

هكذا وفي توكيد علمي وضمن النسق الكوني وعلم الفيزياء، لا يمكن مطلقا ان يوجد شيء بدون قوة تنجزه، ذلك لان كل فعل لا ينجز الا بقوة.

فالسلطان؛ اذن هو ظهور وقيمومة امر الله تعالى في الكائنات، وله صفة الرحمة كما هو صفة القوى الكونية الاخرى التي بها تنجز الافعال الكونية.

أي ان السلطان قوة رحمة من فيض لطف الله تعالى ورحمته الواسعة التي تغمر الكون الكائنات.

فالسلطان اذن؛ كلمة الخالق في المخلوق وارتباط لفظ السلطان بالله تعالى، يعني هوية مربوبية الكائن التي يمنحها المكون سبحانه، فكل مخلوق خلقه الله تعالى انزل الله به سلطانا، أي منحه هوية.

ولذا فعندما يصنع الانسان من الحجارة او الخشب او المعدن صنما الها يعبده من دون الله، فان هذا الإله لا يملك تلك الهوية التي يسميها القران (السلطان) فهويته من الله هي الاسم الحقيقي الذي نستجلب به معناه: فان كان خشب فهو خشب او كان حجرا فهو حجر، او كان معدنا فهو معدن، بهيئة تمثال او صنم او نصب بهيئة ما ولا يمت لمعاني الالوهية باي صلة.

وعندما يسمي الناس ذلك التمثال؛ الها فتلك تسمية بلا هوية أي بلا سلطان قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ

﴿أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [سورة الاعراف: ٧١].

والحقيقة القرآنية التي يصدع بها القران هي: ان معنى السلطان او الهوية التكوينية للموجودات: هو القوة الكونية المنجزة للأفعال والأشياء التي ارادها الله تعالى فكانت –وعندما نقول يريدها الله تعالى –نعني؛ ان يقول سبحانه وتعالى لها (كن)، لأنه تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

فالكون وكل كائن موجود فيه، مهما صغر او كبر انما هو مرتبط ذاتيا بإرادته تعالى في الكينونة. فمن لا سلطان له من الله تعالى لا وجود له، ومن هنا نخلص الى ان:

السلطان: روح من امر الله تعالى، يتجسد في قوة قدر من الامر العظيم (كن) الذي به تنفذ ارادة الله تعالى، وتتكون وتتقوم به الكائنات والذي بدونه لا شيء يمكن ان يكون على الاطلاق.

ومن عين هذا المعنى؛ وفي حال الشرك بالله –والعياذ بالله –؛ نجد ان القلوب في النفوس المشركة لا تتقوم بسلطانها الحق، فهي خواء، مرعوبة ترتعد لأهون سبب، ليس كالقلوب المؤمنة حيث الثبات والاتكال على الله مانح السلطان الحق حتى تبلغ الشمم لالتصاقها بحقيقة تكوينها.. والى هذا يشير قوله تعالى:

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة ال عمران: ١٥١].

وكما جاء في سورة الانعام؛ يتساءل سيد الموحدين النبي ابراهيم الخليل عليه السلام باستنكار:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الانعام: ٨١].

بمعنى انه عليه السلام يستنكر: كيف اخاف او أنا المؤمن المستند الى ذاتي وهويتي

وحقيقتي؛ وهو سلطان الله تعالى؟!.

والمفروض انكم انتم ايها المشركون من يخاف، لأنكم فقدتم هويتكم السلطان بفقدانكم الايمان بالله تعالى الواحد الخالق الرازق المحيي المميت... ولكنكم لا تعلمون من يستند الى القوة الحقيقية واسبابها ومن يفتقدهما.

فلأن السلطان هوية ربانية -كما قلنا -اذا فعلى اساس منها وعليها تبرز توجهات المرء في خياراته لفعله و تنشط النية في النفوس، فيحسن الفعل او يسوء في مقياس الله تعالى ومعياره، فيعرف المحسنون من المسيئون.

وهكذا تصنف افعال البشر. فمن لا يعرف ولا يعترف بسلطان الله تعالى في الكون والكائنات اؤلئك ضلوا عن هويتهم، فهم كالأنعام بل هم اضل سبيلا، ولذا جعل الله تعالى عليهم سلطانا واضحا، انظر قوله تعالى في ذلك:

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[سورة النساء: ٩١].

ولذا وعلى نفس الاتجاه من معنى السلطان نجد اقوال الله تعالى، فلسلطان لك ولأجلك الا ان تلوذ بغير صاحب السلطان الحق، فتخرج عن نسق الكون الذي يتقوم بالسلطان من كل نمط من الخلق.. انظر قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [سورة النساء: ١٤٤].

ففي القصص القرآني حيث يحكي سيرة الانبياء والرسل؛ ينبه القران الى ان السلطان الهوية وان خفي معناه في الكائنات عموما وفي الناس خصوصا كما في اصحاب موسى حيث اظهروا له النكران والعنت ثم بعد ذلك الشرك باتخاذهم العجل الها، لكنه كان شديد الالتصاق بسلطان الله تعالى مما ثبته بالرغم من كل ما كان من قومه.. هكذا كان لموسى من الله تعالى السلطان الواضح المبين، قال الله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[سورة النساء: ١٥٣].

ولان السلطان؛ هوية الكينونة من الله تعالى، حذر الله تعالى من التشبث بغير هويته فقال تعالى تنبيها وتوعية للناس ليرتبطوا بهوية كينونتهم:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة الاعراف: ٣٣].

واذا اردنا مزيد من الوضوح في معنى السلطان الهوية؛ القوة المنجزة لإرادة الله تعالى في كون مخلوقاته لننظر الى الآية التالية:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾[سورة الاسراء: ٣٣].

فالذي يعتمد سلطان الله، ويستند الى سلطان الله تعالى، والذي يمنحه الله تعالى السلطان لا محالة منصور.. فليطع الله، وليتيقن النصر المؤزر من الرحمن الرحيم صاحب السلطان الاوحد الواحد الاحد المتفرد الذي لا سلطان غيره.

ولان السلطان هو القوة الربانية والهوية الالهية فان الله تعالى يطلب من عباده الدعاء الى الله تعالى والتعبد بطلب سلطانه والاستعانة بسلطانه جل وعلا:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾[سورة الاسراء: ٨٠].

واذا اراد الله تعالى بقوم خيرا جعل لهم من لدنه سلطانا ملهما حاميا حافظا:

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[سورة القصص: ٣٥].

ان كل ما عدا الله تعالى الواحد القهار في سلطانه انما هو ضئيل حقير باطل خاسر خاسئ باطل، ولذا يتساءل رب العزة باستنكار، كيف يتكلم من لا

سلطان له من الله أي من لا هوية له منه، ولا قوة إلا بالله؟!.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾[سورة الروم: ٣٤-٣٥].

وعلى اساس من ذات المعنى الوضح للسلطان باعتباره قوة الله المنجزة للكائن يستمر التساؤل الانكاري من لدن الله تعالى: ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة يونس: ٦٨].

ان صناعة الاصنام من الخشب او الحجارة او المعادن لتكون شواخص لإلهة تعبد من دون الله تعالى، وتعطى اسماء تقدس من دون اسماء الله الحسنى، انما هو عمل اخرق لا عقل فيه، لان الخشب والحجر والمعدن وغيرها اشياء لا تفقد معانيها بالتسمية، وليس لمجرد التسمية تكتسب القدسية، فنحن في نمط التسليم التعلمي؛ نستدعي المعاني بأسمائها، ونحضر الاسماء بمعانيها، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٤٠].

ويتكرر توكيد هذا المعنى للسلطان الهوية التكوينية، في الآيات القرآنية برفض الظن والهوى في اطلاق التسميات على تماثيل صنعوها بأيديهم من الحجر او الخشب او المعدن، او قد يكون الاسم لأله صنيع الظن او الهوى حين يكون الانسان عبدا لهواه او ظنه الباطل.. قال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾[سورة النجم: ٢٣: ٢٤].

ان استلاب الهوية التكوينية للكائنات؛ لا يعني إلا العبث وإتباع الهوى، فلا تقبل العبادة لأسم لا معنى له، ولا معنى بلا سلطان ولا هوية لكينونته.

وهكذا يتبرأ الشيطان يوم القيامة من اي سلطان، لأنه يعلم ان لا سلطان

فاعل إلا سلطان الله تعالى، فهو السلطان المتفرد في الوجود. وان وعد الله تعالى حق لأنه منجز بسلطانه تعالى اما وعد الشيطان فزائف، وهكذا يصف القران هذا الحال: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة ابراهيم: ٢٢].

والحقيقة ان الله تعالى خلق الانسان ببصيرة ولو القى معاذيره. (﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾[سورة القيامة: ١٤].

والسلطان الرباني واضح للجميع، فلا يلحق زيف الشيطان وغروره إلا الغاوي اما من كان له نصيب من البصيرة فليس للشيطان عليه قدرة او قوة، وهكذا كان:

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[سورة الحجر: ٤١-٤٢].

والمعنى القهري لفعالية السلطان تخل بمعني النسق الكوني الذي تجري به افعال الكون والكائنات طبقا لمشيئة الله تعالى، وحسن ما خلق تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[سورة السجدة: ٧].

لذلك فان السلطان؛ الهوية التكوينية القادرة الفاعلة في الانسان تصبح حصانة كاملة للعبد اذا استعاذ من عدوه بالله ذي الحول والقوة، ويتكل عليه فيؤمنه من باس الشيطان وحبائله ووسوته: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[سورة النحل: ٩٨ -٩٩].

فالاستعاذة بالله من الشيطان تعني: الالتصاق بالهوية التكوينية المقتدرة، بمعنى الاستناد الى سلطان الله تعالى القوة والرحمة في النفس دون اي سلطان زائف اخر.

فلسلطان هوية لمن يحملها وليس لمن

يتخلى عنها، والعبادة والطاعة في الانسان لله تعالى من معاني حمل الهوية تلك.. لماذا؟.

لان الطاعة تعرّف؛ على انها استجابة الكائن لنظام كونه، واذا توقفت استجابة الكائن لنظام كون عُدم او استحال؛ اي ان الطاعة بعبارة اخـــرى هي الوجود ذاته، فإذا توسم العباد بكونهم عباد لله تعالى، اي حملوا هوية وجودهم، اي انهم حملوا هوية كونهم فلا سلطان للشيطان عليهم: لاحظ الآية التالية:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[سورة الاسراء: ٦٥].

وفي بيان اوضح لمعاني حمل السلطان الهوية التي يتحصن بها الانسان من شر اي سلطان آخر، يشير الله تعالى في آياته الكريمة الى ان ذلك مرتبط بصدق الايمان بـالله تعالى الـذي يرتبط ذاتيـاً بالإيمان بالغيب والآخرة:

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[سورة سبأ: ٢١].

والموبقـات من الجرائر التي يمارسها الانســان في حيـاتـه لا تـنـاسـب حمله للسلطان الهوية ابـدا، والطغيان خطيئة موبقة ليس فقط تمنع نشاط واداء الهوية التكوينية وفعاليتها بل التي لا تسمح للآخرين ان يحاولوا اصلاح الطغيان:

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾[سورة الصافات: ٣٠].

ان الذي يفقد هويتـــــه الاجتماعية مثلا؛ يضيـــــع ويبقى مستلب مهزوز الشخصية، امـــا الذي يفقد السلطان هويته التكوينية في ذاته؛ فانه يبقى طافيا كريشة في مهب الريح، لماذا؟.

لانه يشعـــر في نفسه مجهول المصير، يعتقد العبث في كونـــه، فيأتي منه الأفك والعته والخطل في القول والفعل ولا سلطان له.

فالذي لا يؤمن بخالقه ورازقه ومميته ومحيه وباعثه وسائله فيما بعـــد الموت ويظن انما خلق عبثا لا رسالـــة له (فهو لا هوية له يرتكز عليها او قـــدرة كونية يستند لهـــا) بمعنى ان موجه لخيارات فعله غير الهوى فهو ضال ضائع؛ ومما

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[سورة الصافات: ١٥١-١٥٩].

وعليه فان الذين يأتون بالأفك او الكبر او بالعبث او بالقول الزور، انما اعمت قلوبهم الموبقات من الذنوب بالكفر والتكبر والتجبر على ابناء جلدتهم من البشر، اما المؤمنون فأنهم يشمئزون مما يأتي به الظالمون و يمقتون افعالهم وأقوالهم بفضل نور سلطان الله تعالى الذي يحملونه في وجدانهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[سورة غافر: ٣٥].

ونلاحظ ايضا توكيد الاية التالية ايضا على معنى السلطان الهوية التي يفتقدها الجبابرة والطغاة المستكبرين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة غافر: ٥٦].

٣. معنى السلطان التكويني:

قدرُ الأمر العظيم (كن) في الكائن:

هو السلطان:

كل شيء في الكون لابد له في ذاته وفي جوهره قدر من الأمر الرباني (كن)، فان كل شيء كائن الآن، أوهو ممكن الوجود؛ إنما كان او يكون بأمر الله تعالى له بالوجود، كما يقول الله تعالى، وكان هو بذاته نفاذا لمشيئته وقضائه جل شأنه. انظر أقواله تعالى:

١. ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة البقرة: ١١٧].

٢. ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة ال عمران: ٤٧].

٣. ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة النحل: ٤٠].

٤. ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة مريم: ٣٥].

٥. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة يس: ٨٢].

٦. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة غافر: ٦٨].

٧. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[سورة الإنعام: ٧٣].

هكذا يتدرج قدر الامر كن؛ ابتداءً من كينونة وقضاء وظهور النمط الاول للخلق بالوجود (النور والطاقة)، اللتان هما اصل الخلق ومعنى لتجسيد القوة الرحيمة بارتفاع العدم والعجز والعتمة والقصور.

الى ظهور وقضاء النمط الثاني للخلق: (الكتلة)؛ تتجسد القوة الرحيمة في معنى المادة المقبوضة او محض المادة بجاذبية هائلة.

الى ظهور النمط الثالث للخلق: (المادة)؛ فتبسط المادة من القبض بقوة هائلة رحيمة، و يتركز فيها القصور الذاتي.

والى ظهور وقضاء النمط الرابع للخلق: (الحياة) بقوة رحيمة يرتفع معها القصور الذاتي ويتركز القصور الحيوي الذاتي.

والى ظهور النمط الخامس للخلق: (العقل)، بقوة رحيمة يرتفع معها القصوران المادي والحيوي الذاتيان ويتركز القصور العقلي الذاتي.

والى ظهور النمط السادس للخلق: (النبوة) بقوة رحيمة بل محض رحمة، ترتفع معها جميع القصورات في شخص النبي، تجسيدا لكمال خلق الله تعالى في مسيرة ابتدأت من العدم حيث العجز (العتمة والعدم) الى الكمال (ارتفاع كل القصورات الخلقية)، وهي مسيرة تترجم تنامي اقدار الامر كن في الكائنات.

فقد كانت القوة والطاقة من العدم

بأمر الله لها ان تكـــون (بالأمر كن)، ثم من الطاقة والقــوة خلق الله تعالى المادة بالأمر كن ايضا، ثــم من المادة وبالأمر كن خلق الحياة، ثــم من الحياة وبالأمر كن خلق ألعقل ثم وبذات الامر (بروح من امره)[٢] خلق النبوة.

وهكذا يتكرر الامر كن بقدر؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [سورة القمر: ٤٩].

وجـــاء توكيدا لذلك بقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[ســورة الاحزاب: ٣٨].

ومع كل صعود في قدر الامر كن، هناك صعود نحو الكمال الذي تم كماله عند كون سيد الكائنات رسول الرحمة محمدﷺ.

اذا في كـل نمط من الكائنات هناك قدر من الامر كن وقد تدرج صاعدا من تمام العجز الى تمام الكمال، ونحن نجد الحسن دوما في أي حركة كونية صاعدة للكمال مما يفسر لنا انشدادنـا لسلطان اللطيف الخبير في الكون.

فلا شيء كائن على الإطـلاق يمكن ان يكون خارج الأمر كن؛ لأنه سيكون خارج إرادة الله تعالى وسلطانه وهذا من أمثال مفتريات المشركين بوجود آلهة، يقول عنها القران الكريم ما لم ينزل به سلطانا.. قال تعالى:

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٧١].

ومثله يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[سورة الحج: ٧١].

ومثله توكيد على ان الأسـماء التي يعطونها لآلهتهم ليس لها معاني ولا وجود حقيقي كائن لها إلا الحجارة المنحوتة او الخشب المحفور او غيرهما.

(٢) الروح من امر الله هو الوحي؛ ذلك تعريف القران للوحي.. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الشورى: ٥٢].

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[سورة النجم: ٢٣].

فالكون بما فيه وما سيكون فيه، وما حدث او ما سيحدث؛ إنما هو قضاء الله تعالى ونفاذ مشيئته، يسوى بقدره من الأمر كن المقدس فينتقل من عالم الخلق إلى عالم الأمر.

فبالأمر العظيم (كن) الذي يصدر بإرادة من المكون العظيم جل شانه لتسوى كائنات الوجود ابتداءً من النمط الأول سريانا وباختيار محسوب بدقة متناهية إلى النمط السادس... او من اليوم الأول إلى اليوم السادس، كما ينعته القران الكريم.

والأمر الرباني (كن) سابق للزمكان بل الزمان مربوب له فلا اثر لتقاطعات الزمان والمكان عليه، فبالأمر كن؛ كان الزمكان في النمط الثالث، ليصير او ليكون بعدها مفهوم الاستواء على العرش بالنسبة لنا، وإلا فان الله تعالى لا يحتاج الى عرش، بل هو تعالى غني عن الحاجة مطلقا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [سورة فاطر: ١٥].

٤. القرآن والسلطان:

القرآن الكريم، هو جزء الوحي الذي شاء الله تعالى ان يكون مكتوبا من مجمل الوحي المستلم من قبل الرسول المصطفى محمدﷺ، وهو وقد تولى الله تعالى حفظه لنا، وهو لدينا اليوم محفوظ في نصوص يجمعها المصحف الشريف.

وعليه فالمصحف الشريف في سلطانه؛ مع انه مادة من ورق وحبر؛ الا انه يختلف تماما عما احتواه من القران الكريم من معاني السلطان في الآيات المباركات، والذي هو واقع نور البينات وروح البيانات، التي هي روح من امر الله تعالى، اما سلطانها فليس في المصحف الشريف انما هو واقع في مقدار الحجم الذي تأخذه من نفس الانسان الذي يؤمن بالقرآن.

بمعنى ان السلطان الذي في الاية ينتقل الى نفس المتلقي للقران بمقدار يساوي حجم الايمان بالله تعالى في نفسه.

وعليه فالناس ازاء القران يتفاوتون كثيرا في مقـــدار ذلك الحجم الروحي للقران في النفوس. وسنبين ان شاء الله تعالى في لاحق البحث لماذا يتفاوت الناس في حجم السلطان في نفوسهم.

وسبب هذا التفاوت في حجم سلطان القران في النفوس، يأتي من التعامل مع النص القراني كنص لغوي، وهذا يؤشر ويشير الى خلل كبير في التعامـــل مع الوحي الذي هـو روح من امر الله تعالى، وكل هذا اصله من عدم الاعتبار بسلطان الاية المنزلة حيث هي روح من امر الله تعالى.

ويستطيع كل منا ان يحسن التعامل مع النص القراني لتنمية حجم السلطان في نفسه وفق المعايير التالية:

١- عـــــدم اعتبار النص القرآني نصا لغويا فحسب، وهو في الواقع روح، والفرق جـــد كبير؛ فاللغة وسيلة للتعبير عـــن معنى، والنص القرآني بذاته تمام معنى لروح كائن يريد أن يخرج في لفظ أو ألفاظ بمعجز.

فـالأول: (النص اللغوي) لا نحتاج معه إلى استشعـــار العجز، بل قد يكون الغائب عـن النص اوعـى مـن الشاهد والسامع له. والثاني؛ (النص القراني): لا يمكن التعامل معه والاستفادة منه إلا من خلال استشعار العجز من الاحاطة بكمال معناه تماما، وهـذا يتطلب الإيـمان، بل مرحلة التقى من الايمان؛ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[سورة البقرة: ٢].

وهذا ايضا يتكامل بما يلي:

١. ان استشعار العجز؛ يتطابق تماما مع كوننا وكينونتنا بقصـــور عقلي ذاتي فالعقل كما بقول الامام علي عليه السلام غريزة تربيها التجارب بمعنى انه لايصيب دوما بل لابد له مـــن التجربة، وهذا ليس كما هي الحـــال في الموحى اليه وهو النبي صلى الله عليه وآله الـذي لا قصور فيه، وهذا التطابق مع واقع كوننا؛ يعطينا فرصة التثبت، ويحقق لنا تهيئة للسير وفق سنة السريان الكونية، والتوافق مع النسق الكوني الى الكمال، فنتجاوز العجز العقلي بالإيمان بكل ما جاء من عند الله جل وعلا الـذي يؤكده قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ

﴿ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ٧].

٢. لابد لنا في دراسة القران ان يكون منهجنا معكوسا لما اعتدناه من دراسة الاشياء؛ فلقد اعتاد الباحثون في دراستهم للأشياء البدء من الاشياء وصولا الى حقائقها، أي انهم يريدون أن يبلغوا حقائقها انطلاقا من ذاتها، ولكننا عندما نتعامل مع القران، فلابد ان يحصل العكس، فإنما نبدأ بالحق والحقائق (الآيات)، وننطلق الى اثارها في الواقع، وهذا ما يجب أن نعتمده عند التعامل مع النص ألقراني. قال الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[سورة يونس: ٣٢].

فالذي يبدأ بالحق وهو عنده وحاصل عليه، الى اين يريد ان يصل؟.

٢- عدم التسليم بمسميات ليس مقارنة لواقعها ألمعنوي؛ حيث اننا في حياتنا العلمية ومن لحظاتنا الاولى للتعلم نبدأ بالنمط التعلمي الاول (تسمية الاشياء)؛ أي نستدعي المعاني بالأسماء؛ فعلى سبيل المثال: ما معنى الحسنة والسيئة، وما معنى الوحي.. والإمام، والمنافق، والمؤمن، والشيطان، والصدّيق، والجنة، وكاتب الوحي، وسيف الله المسلول، والروح، والقلب، والنفس، والعقل، والعصمة، والوحي،... الخ.

حيث تحصل معانيها بالتوافق والتطابق مع سلطانها الذي هو -كما اسلفنا -هويتها وليس بالتسليم كنمط تعلمي.

فنمط التسليم التعلمي يتحقق بالطاعة فقط والطاعة هي استجابة الموجود لنظام وجوده، والطاعة حاصلة ومتحققة بالوجود.

وعليه فبالتوافق صارت كثير من الأسماء مع الزمن قرينة لها، فاضطررنا للتسليم بمعانيها، وهو امر خطير جدا،

حيث صارت تلك المعاني مسلمات يصعب التفاهم من غيرها أو يستحيل، إلا اننا نحتاج ان نميز بين الاسماء ذات الهوية التكوينية؛ اي الاسماء السلطانية (الاسماء التي انزل الله تعالى بها سلطانا)، والتي تم التوافق على معانيها بين الناس، فسماها الناس واعتمدوها، وهي في الواقع لا سلطان لها فلا هوية تكوينية لها، وعليه اليوم كل العقائد المنحرفة عن الفطرة التكوينية للبشر الذي هو الدين ذاته.

ولا سبيل الى تصحيح ذلك إلا أن تهتز تلك المسلمات بالعلم اليقين.

٣. العلوم والمعارف المحصلة بنمط التسليم لمعاني أسماء ما انزل الله بها من سلطان، هي ظنون توافق الناس على اعتباره علم او معرفة وهي في الوقع هراء، وقد منع القران ذلك: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [سورة الاعراف: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر: ٣٥].

فالقفز على الحقائق للتسليم بمعاني مجملة لنصوص ما كبديهيات مسلمة، يشبه تسليمنا بالمعاني لألفاظها، وهذا الذي أسماه الناس علما بهذا البناء الخاطئ؛ إنما هو وهم ينهد بمجرد هزة بسيطة لتلك المسلمات الكاذبة التي بنته.

إذن نستطيع أن نبني حجما ناميا لسلطان الآيات القرآنية في النفس، بل و نرفع التعسف الذي لحق بالتفسير من خلال ضوابط وموازين لابد من مراعاتها. ومن خلال مؤهلات لابد من توفرها عند التعامل مع النص القراني. ولابد من اعتماد معجم موزون لكل ألفاظ القران كأسماء مسلطنة (انزل الله بها سلطانا) لضمان عدم اختراق الوحي بمسلمات مستلبة.

ان استشعار العجز ازاء النص القراني باعتباره وحي (أي روح من امر

الله تعالى)؛ و القوة الرحيمة التي ترفع القصور العقلي وتحقق الكمال في شخص النبي او الرسول، ان استشعار العجز في الذات سيكون علة ودافعا لطلب الكمال، لان السعي للكمال نسق تكويني في الاشياء الموجودة كلها وليس في الانسان فقط، واعترافك بالعجز يجعلك تطلب تمام المعنى من ترجمة المعصوم العلمية والعملية التي تحكيها سيرته المباركة.

فالمعصوم المرفوع عن عقله القصور؛ هو ترجمان القران بالقول والفعل، و لا مجال للاعتداد بالنفس ازاء كلام الله تعالى دون الاعتماد على معونة الاسوة التي امر الله تعالى الاقتداء بها.. كما لابد من طلبه كوسيلته في بناء سلطان القرآن النامي في النفس الانسانية، فالعقل عاجز ذاتيا عن الاحاطة بقصد القاصد في اياته المباركة، والقاصد هو الله تعالى في زمانه ومكانه.. فالعجز حتم واستشعاره والشخوص الى المعصوم والتطلع اليه، خطوة بالاتجاه الصحيح نحو الكمال، والكمال المطلق لله وحده، الذي تنشد اليه المخلوقات في كينونتها كناموس كوني في يتجلى لنا في حقيقة التطور نحو الاحسن التي لا ينكرها حتى الملحد.

٤. عندما يتحقق للنفس البشرية سلطانها القراني النامي:

لو تحقق في النفس الانسانية للقران سلطانه النامي، لكان لها هدى ونور و شفاء ورحمة.. وبالعكس فان سلطان القران اذا سلب من النفوس بالكفر له مفعول معاكس في النفوس الكافرة به.. قال تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[سورة الاسراء: ٨٢].

وهذه مفارقة عجيبة الحدوث فهي ظاهرة كونية لا يلتفت اليها الا من له نصيب من سلطان القران في نفسه، ولأن الدين هو الفطرة او التكوين كما يقول الله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

﴿ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الروم: ٣٠].

فهذا يعني ان الاستماع للقران؛ يداخل سلطانه في النفوس اذ السلطان هو الهوية التكوينية كما مرّ معنا.. واليه يشير الله تعالى في قوله الكريم:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٤].

وللتركيز على تلك الهوية واستحكام النية باتجاه سلطان الله تعالى امر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، حيث له سلطان على عباد الله؛ قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[سورة النحل: ٩٨]

وكل مؤمن يحيى صالحات الاعمال، يستشعر مواقع الاثر من نفسه حين يقرأ القران ويشعر بمساقط التأثير من نفسه حين يتدبر القران، فيجد البشرى والتبشير، ويسره نور الهداية ويتلمس الصواب ويأمل الثواب مثلما يغتم للتقصير والقصور الذي يبدر منه وهذا ما لا يجده غيره في القران. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٩].

كما يؤكد المولى جل وعلا في الايات التالية انعدام توفيق الله للافادة من القران وسلطان اياته في نفوس الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [سورة الاسراء: ٤٥-٤٦].

٥. بناء الحجم النامي لسلطان القرآن في النفس الانسانية:

ان من اهم الدلالات البنات على ان الآيات القرانية قول الله تعالى؛ هو ان هناك فرق بيّن ظاهر بين أي نص من خارج القرآن، وبين النصوص القرآنية، ذلك لأن الآية من آي كتاب الله تعالى ذات حجم متكون من ثلاث أبعاد، هي:

اولاً: البعد المعرفي الموضوعي:

المعرفة في موضوعها التي تقدمها الآية للإنسان وهي؛ نص البيان المكتوب

في ثماني موضوعات جمعت كل شيء فصار القرآن تبينا لكل شيء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل: ٨٩].

أ. البيان القدسي؛ وهو الوحي الذي يختص بالله تعالى وأسماءه الحسنى، وما يتعلق بذاته وصفاته، فآيات البيان القدسي؛ تتحدث عن الله تعالى في إرادته وصفاته الحسنى وقدسه وعلاقته بخلقه ومخلوقاته.

ب. البيان التشريعي؛ وهو الوحي الذي يتبنى صلاح الخلق والمخلوقات، فيحدد الحدود و يقيم الأحكام في الحلال والحرام، والواجب في الفعل أو الواجب في منعه. فهو البيان الذي؛ يتحدث عن أحكام الله وشرعته في عباده؛ ما يريد وما لا يريد من العبد، وما اوجب عليه وما حرم وما بين ذلك.

ت. البيان العلمي؛ وهو الوحي الذي يفسر الظواهر الطبيعية أو الحياتية أو العقلية، أو يوعز لدراسة ظواهر كونية معينة بأوامر مباشرة، أو يتساءل عنها أو يقسم بها. فهو البيان الذي يتحدث عن حقائق الخلق وعلله، ونواميس الكون وسننه. ليمكن الانسان من بناء عقيدته الراسخة بربه من خلال كتاب الله تعالى الذي يمنحه الثقة العالية بربه ونفسه.

ث. البيان الغيبي، هو الوحي الذي يتكلم عن الحياة الأخرى، يصف القيامة وأوقاتها و أحوالها، ويتحدث عن الجنة والنار وأهلهما وما يجري فيهما... بيان؛ يتحدث عن العالم الآخر والعوالم الأخرى في الكون. وهو بذات النهج والغاية ليبني الانسان وفقا لنسق الكون الذي هو بالواقع ترجمة لمشيئة الله تعالى.

ج. البيان التاريخي، هو الوحي الذي يسرد الوقائع التي جرت في قصص الصالحين والطالحين، مقرونة بالعبرة وببيان السنن، انه بيان؛ يتحدث عن حوادث سالفة ضمن سنن الله في خلقه، كونا وتكوينا وما بينهما

للاعتبار بها.

ح. بيان فيض اللطف والرحمة، يبرز هذا البيان في الغالب من الايات في تعقيبات الوحي على الحادثات والعوادي، ويبين كيف تجري المقادير وفق علة واحدة هي الرحمة؟!. وكيف تتغير المقادير لهذه العلة الأم؟!.

انه بيان فيض رحمة الله تعالى التي كتبها على نفسه ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[سورة الانعام: ١٢]، التي وسعت كل شيء، وكانت فوق كل سبب، فهي أم العلل في كل هذا الكون نواميسه وظواهره.

خ. بيان الرسالة، بيانات الوحي عن حقيقة الخلافة الجعل (الإمامة)، باعتبارها معنى الكمال في كل انماط الخلق وفي كل خلق؛ سواء من ذاته اومن صنفه.

فبيان الرسالة؛ بيان معياري؛ يتحدث عن ضوابط ومعايير في الوجود، ومعايير في المعاني؛ كالحب والعلم والحق والحسن والقبح.

د. بيان النسق الكوني؛ هو حديث الوحي في السنن الكونية، وفي بناء المعرفة الصحيحة، واستخلاص الأحكام الحق في المعرفة.. فهو بيان تشخيصي؛ يتحدث عن وسائل الخالق العظيم في إبراز حسنه وكماله وتجلي إبداعه في خلقه.

وقد تجد مختصات من الآي في هذه البيانات، أو قد تجد أن آية واحدة تشتمل على كل هذه البيانات، او كثير منها.

ان مجرد التعرف على هذه البيانات القرآنية من قبل المرء يمثل البعد الاول في بناء سلطان الاي الكريم في النفوس، والذي بدوره يؤسس لحجم نام في النفوس البشرية.

ثانيا: البعد الروحي:

وهو عمق الوعي بالبيان القرآني من النفس، ومقدار استيعاب النفس لمعاني البعد الموضوعي.. فكل آية لها عمق في النفس، وعمق في ذاتها، وإذا كان الناس يتساوون في البعد الموضوعي بمقدار ما يتلقون من معارف؛ فإنهم يتفاوتون في وعي المعارف القرآنية.

فعلى سبيل المثال لا الحصر: النص؛

(لا اله إلا الله)، التي نعرفه جميعا ونشهد به ونصدع به في الاذان... لا نعيها كما يعيها الرسول ﷺ، أو الإمام علي عليه السلام قطعا، فتلك الشهادة لها عمق اكبر في نفس الرسول والإمام صلوات الله عليهم وآلهم. وهكذا كل المفردات ألأخرى لها اعماق متفاوتة بين البشر في الروح هو الوعي.

فعن الامام زين العابدين عليه السلام يقول:

(كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق. فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء)[٣].

وعن الإمام الباقر عليه السلام يقول:

(إن للقرآن بطنا، وللبطن بطن، وله ظهر، وللظهر ظهر،... وليس شئ أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية لتكون أولها في شئ وآخرها في شئ، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه)[٤].

وعن الإمام علي عليه السلام: (القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق)[٥].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (القرآن كله تقريع، وباطنه تقريب)[٦].

وعليه فعلى اساس من البعدين الموضوعي والروحي تتشكل مساحة العلم في النفس لآيات الله في كتابه.

ثالثا: البعد الزمني:

وهو ما يترتب من استيفاء الزمن لتستحيل المساحة العلمية لأي أية في النفس إلى حجم واقع من ثلاث أبعاد فالآية التي تأمر، قد تكون معلومة في بعدها الموضوعي، وقد يكون لها حظ من وعيه في نفس ادمي ما، ولكنها تبقى مجرد مساحة في النفس لا حيز لها؛ إذا لم تقترن بالزمن، حيث تركبه النفس لتحقيق الأمر الذي تتطلبه الآية.

بمعنى ان استثمار الزمن في استحالة الايات الى واقع ميداني عملي هو الذي يبني حجم الاية في النفس الانسانية العاملة.

(٣) بحار الانوار للمجلسي: ٩٢/ ٢٠/ ١٨.
(٤) بحار الانوار للمجلسي: ٩٢/ ٩٥/ ٤٨.
(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٨.
(٦) معاني الأخبار للصدوق: ٢٣٢/ ١.

ونحن نعرف ذلك من الحالة المثالية للراسخ في العلم، حيث تبدأ عنده بمعرفة مواضيع الآي الكريم كلها، ثم وعيها بكامل بعدها، باستيعاب ترجمة المعصوم لها، ثم استعمال كل لحظة من لحظات عمره وزمن وجوده في تكريس معاني تلك الآيات من بياناتها.

أي ان الشخص الذي يمتلك حجما ناميا لسلطان الايات في نفسه، يحمل القران في وجوده، فالمتشابه عنده كالمحكم كل حق من عند الحق، فالخطل والصفاقة وكل ما لا ينفع في بناء العقل؛ انما يأتي من الزيغ والقبح وإتباع الهوى.

ومن ثمرات وجود سلطان نام للقران في النفس؛ هو ان السوء الذي يأتي به القصد المسبق في الفتنة لا حيز له في حجم يتسع ليشمل كل النفس.

فإن نفسا نمت وشبّت بأبعاد الآي القرآني العظيم، تصير حساسة رقيقة شفافة لما هو قبيح ولما هو حسن، بالإضافة إلى تجهزها بمواد البيان المعياري الضابط في كل وجه؛ فتصير بذلك نفسا يحكمها القران، وخلقها القران، وسبيلها القران، وحجتها القران، وحملها القران.. تلك هي نفوس الراسخين في العلم؛ المعصومين عليهم السلام.

٦. السلطان القراني في النفس والتأويل:

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة آل عمران: ٧].

في محاولتنا لبناء سلطان قراني في نفوسنا؛ يرد مع هذه الاية تساؤل كبير ومثير؛ وهو: إذا كان التأويل -كما يقول الله سبحانه وتعالى مقصور عليه جل شأنه.. وعلى الراسخين في العلم الذين تجاوزوا الزيغ والفتن، وهم قليلون جدا أو لا يكادون يعرفون بسبب التجهيل والاضطهاد الذي مورس ضدهم والقائم الى الآن فما الحكمة من التنزيل إذن؟.

في جواب هذا التساؤل، يرد الى الخاطر، ما قلناه في بناء البعد الروحي

للقران في النفس يتطلب استشعار العجز الذي هو بحد ذاته يشير الى ضرورة وجود المعصوم الراسخ في العلم الذي هو ترجمان للقران، هذا امر. والأمر الثاني؛ ان التأويل هو واقع حق عن حال من الوجود، يتمثل في طور خلقي له حدوده من الزمان والمكان ومتغيرات أخرى لا نحيط بها ربما، والقران، كلام الخالق عن خلقه في تكثره وفي اختلاف حدوده، وفي عوالمه المختلفة إلى خلقه؛ فهو إذن حديث واقع لواقع. فالتأويل: هو تجلي الواقع حين تجليه إلى المخاطب أو المقصود في الخطاب في زمانه ومكانه المقصودين ايضا.

فالحياة الأخرى واقع، والغيب في الحديث عنها -كما نسميه -هو واقع آخر، والعوالم الأخرى وقائع لا نعلم منها شئ إلا ما اطلعنا عليه رب العالمين قال تعالى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[سورة آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [سورة الجن: ٢٦ -٢٨].

وفي الآيتين إشارة إلى الحديث عن هذا الواقع (الغيب) إلى الرسل ﷺ ليبلغوا به الناس كجزء من وضيفتهم، حديث عن واقع دون تجلي فلا تأويل يأتي إلا بأجل لأن الوقع يرتبط بالزمن ولا يقوم إلا معه، بل التأويل يأتي كاملا يوم القيامة... أو بالتدريج، منذ توفي الانفس من قبل بارئها حتى نيل العقاب أو الفوز بالثواب.

وفي آيات أخرى يشير إلى معاني تجلي الواقع بالتأويل، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ

مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ ... الآية ﴾ [سورة الأعراف: ٥٢ -٥٣].

إذن: عند تطابق قول الله تعالى، مع الواقع المتجلي للآدمي يأتي التأويل، فالقران دوما إنما هو حديث عن واقع قائم، وتجلي هذا الواقع القائم للعيان (الحواس)؛ يتلازم مع اقتران الأبعاد الزمنية والمكانية، ولذا يقول الذين نسوه من قبل؛ أي الذين لا سلطان للقران في نفوسهم: قد جاءت رسل ربنا بالحق.. قال تعالى:

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٣].

اما المؤمنون فقد حصلوا على سلطان القران في نفوسهم فقالوا قبل التجلي بفضل الإيمان؛ (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) فالإيمان من سبل الرسوخ في العلم، بل هو السبيل الوحيد للرسوخ في العلم.

والخلاصة؛ ان الإيمان هو جسرنا الى اكتساب السلطان في القرآن، وبقدر ذلك الايمان وبحجمه نملك السلطان، فليس معجزا ان من امتلك السلطان من القران ان يرتفع العجز والقصور عن عقله، فنره يفعل ويقول ما لا يستطيع غيره ان يقوله او يفعله.

٧. السلطان قوة وقدرة روحية تنجز افعالا وأقوالا مقنعة:

الإقناع هو استخدام المرتكازات العقلية في القول او الفعل التي يشترك بها جميع البشر، والتي تؤدي الى الاقتناع بمدعيات المقنع، ولان الرسول او الانبياء جميعا يملكون كامل السلطان لارتفاع القصورات عن عقولهم بالوحي، فانهم يملطون كامل وسائل الاقناع بمدعياتهم الرسالية، الا ان اقتناع المخاطب برسالة الرسول قد لا يظهر عليه علة المقتنع به، وحتى لو ظهر قد لا يترتب عليه اثر ولهذ امثلة وشواهد كثيرة في التاريخ وفي حياتنا اليومية ويؤكد ذلك القران الكريم بالقول: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ

يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[سورة النمل: ٩ - ١٤].

سلطان موسى بالعصا واليد البيضاء جحدوها بعد راؤها افعالا واقولا و استيقنتها أنفسهم، فالاقتناع يثبت الحجة وقد لا يترتب عليه اثرا في اتجاه الصلاح والاصلاح كما هو المنشود باتجاه غايات الرسالات والرسل صلوات الله عليهم

بمعنى ان البشري الوحيد الذي يمتلك كمال القوة والقدرة الروحية للفعل او القول المقنع؛ هو النبي ﷺ او الرسول الذي باشره الوحي وتلبس نفسه الطاهرة فاخذ كامل حجمه فيها؛ فصار هو هي او هي هو بارتفاع كل القصورات عن عقله، وكان بذاك ﷺ خلقه القران[٧]،

ومن بعده عترته السلالة المختارة عليهم السلام التي اذهب الله تعالى عنها الرجس وطهرها بإرادته تطهيرا.

وحيثما ورد السلطان المبين فانه يعني كمال القوة الروحية المنجزة للأفعال والاقوال المقنعة، فالسلطان هو قوة روحية اصلها الوحي الرباني للبشر ومنها ولان الوحي يلازم الرسل والانبياء، لذا فان سلطانهم واضح في القدرة الكاملة المقنعة التي وهبها الله تعالى للرسل عليهم السلام، قال الله تعالى في ذلك: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة الذاريات: ٣٨].

وهناك الفات نظر قراني بالغ التأثير بالعقول لمعنى ألسلطان، في وقت نزول القران وهو وقت لم تكن هناك تطلعات الى ثقب الكرة الارضية والنفوذ الى جهتها الاخرى، بل لم يكن احد يدرك ان الارض كروية.. او اختراق الفضاء والنفوذ منه.. قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[سورة الرحمن: ٣٣].

(٧) أُنظر مسند أحمد بن حنبل ٦: ٩١ و ١٦٣، شعب الإيمان ٢: ١٥٣/ ١٤٢٥ و ١٤٢٧؛ مجموعة ورام: ج١: ص: ٧٧،

ولم يكن لبشر ان يفكر بماهية هذا السلطان الذي يمكن لنا ان نخترق به الارض والفضاء.

صحيح انهم اليوم اخترقوا الفضاء، بعقول وبإستراتجية منطقية، بعد كثير من المحاولات الفاشلة، إلا انهم لم يفكروا يوما باختراق الارض والنفوذ منها الى الجهة الاخرى لأنهم لا يمتلكون السلطان الذي يتحدث عنه القران والذي ربما عرج به الانبياء الى الفضاء ومنهم نبينا محمدﷺ كان من بين اؤلئك الانبياء بل الصالحون اذا امتلكوا ذلك السلطان.

ان ابسط العقول تحلم بان يكون لها سلطان ما تتحقق له بها أحلامهم وتقنعهم بما لم يقتنعوا به مما يؤثر بهم في بيئتهم او ومحيطهم.. والنظر الى الكون واصل التكوين والوجود والتوق الى معرفة المصير يؤرق العقول على مر تاريخ البشرية.. وكل العقائد على الارض جاءت استجابة لهذا الاصل العقلي.. ويبقى الانسان يطلب ذلك السلطان دوما.. قال الله تعالى:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة ابراهيم: ١٠].

وتوكيدا لما قلنا من ارتباط معنى السلطان بالله تعالى، وشروط الله تعالى لمنحه وإنزاله بمنه وتوفيقه.. قال الله تعالى في ذلك:

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة ابراهيم: ١١].

السلطان الرباني يتلازم مع الايمان اما الكفر والشرك فهما مما يعدم توفيق الله او يبعده في بلوغ سلطان الله تعالى فإنما الشرك ظلم عظيم قال الله تعالى في معنى ذلك: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [سورة الكهف: ١٥].

وفي معنى القوة الروحيـــة المقنعة للسلطـــان، قال النبي سليمان عليه السلام الذي ملك الشرق والغـــرب والجن والأنس يريد مـــن طائر ضعيف ان يأتيه بسلطان مبين، فهل يعقـــل من نبي ملك عظيم ان يطلب غير القـــول او الفعل المقنع لغيابه؟!.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة النمل: ٢١].

والقول والفعل المقنع الذي تنجزه القوة والقدرة الروحية هو أهم ما يملك الرسل عليهم السلام في تبليغ رسالتهم؛ انظر قول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة الدخان: ١٧ -١٩].

بمعنى ان لا كـــلام مقنع ولا فعل مقنع دون قوة روحية تنجزهما والرسل هم افضل من يملك تلك القوة لارتفاع القـصـور عـن عقولهم فقد اختارهم الله تـعـالى لـيرفـدهـم بـروح مـن امـره (الوحي).. قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [سورة الشورى: ٥٢-٥٣].

ولذا جـــاء قوله تعالى توكيدا لمعنى السلطان بأنه الهوية التكوينية النشطة الفاعلة؛ اي انه القوة الروحية المنجزة للفعل او القول المقنع؛ الآيـات التالية اشـارة الى الـقـول والـفـعـل؛ (الحـديـث والخـلـق) باستفهام انـكـاري؛ انهـم لا يملكون السلطان المبين.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[سورة الطور: ٣٣-٣٨].

وهنا تساؤل عن علة الاقناع في السلطان؟.

الاقناع يأتي من سنخية السلطان في الكائنات لأنه صناعة واحدة من رب خلاق واحد فمن ترابطه في الكائنات باعتباره هوية تكوينية، ومن تبادره ومحاكاته لبعضه البعض باعتباره روح قوة منجزة للفعل والقول، فيأتي الاقتناع ويحصل الاقناع من هذه الوشائج الواحدة الموحدة في النفس؛ والاقتناع يأتي من اذعان النفس، والإذعان يحصل من المطابقة بين الواقع والمرتكز العقلي، والعقل؛ هو محصلة قوى النفس الانسانية التي هي مركب سلطان المادة والحياة والروح.

ان في تدبر القران الذي هو سلطان منزل من الله تعالى، لتنمية الهوية الانسانية والطبيعة البشرية للناس، حيث يحيي في النفوس سلطانها وينميه حتى يحتل كامل الحيز من حجم النفس الانسانية.. وهي ملاحظة جديرة جدا بالاعتبار. فلأننا لم ننم هويتنا التكوينية (السلطان) فهي غير فعالة وغير منجزة للأفعال المقنعة، بينما تكون في غاية نشاطها في الانبياء والرسل والأئمة المعصوم عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، فهم في غاية القوة في الاقناع للناس وفي غاية اقتناع الناس بهم مع ان قد يكون الناس جاحدين لهم... قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[سورة النمل: ١٤].

والحمد لله رب العالمين.